المحاضرة الثالثة : أدب السير

1 – مفهوم السيرة:

تحيل لفظة السيرة في اللغة العربية على عدة معان فهي« الطريقة والهيئة » [1] ، وهي :

« السنة ، وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة » [2] ، ويقال : « سيّر سيرة حدّث أحاديث الأوائل »[3]، وفي القرآن الكريم : { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى } [4]، بمعنى سنعيدها إلى حالتها التي كانت عليها ، ويقال : « قرأت سيرة فلان ، تاريخ حياته ، ج سير » [5] .

ولم يعط لمصطلح السيرة تعريفا محددا ، فقد أورد عبد الله إبراهيم بأنها « الترجمة المأثورة لحياة النبي ، واقترنت بالمغازي الدالة على مناقب الغزاة ، أي أفعالهم الفروسية » [6] .

وما يلاحظ على هذا التعريف أنه حصر مصطلح السيرة في المجال الديني بينما تعدى المصطلح حدود هذا المفهوم عند دارسي الأدب ليصبح دالا على ذلك النوع الأدبي الذي « يعرف بحياة علم أو مجموعة من الأعلام » [7] .

وبذلك يصبح لمصطلح السيرة مجال أوسع ، حيث لم يعد يقتصر على ترجمة حياة شخص له مكانة مميزة في المجتمع ، كما لم يعد موضوع السيرة مقتصرا على الحرب ، بل أصبح مقترنا بحياة العلم ومجال اهتمامه .

أما المهتمون بالفولكلور العربي ، فقد حددوا مصطلح السيرة الشعبية ، ومجال تليقها لتصبح دالة عندهم على « مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة، ذات سمات فنية متشابهة ، وذات أهداف فنية متماثلة » [8] .

---

[1] – إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط ، ج1 ، مطابع دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1392هـ – 1972 ، ص 467 .

[2] – الموسوعة العربية العالمية ، المجلد 13 ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، العربية السعودية ط2 ، 1419هـ – 1999م ، ص 381.

[3] – ابن منظور : لسان العرب : مادة سير ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ص 390.

[4] – سورة طه : الآية رقم 21.

[5] – إبراهيم أنيس : المعجم الوسيط ، ص 467.

[6] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 125.

[7] – الموسوعة العربية العالمية ، المجلد 13 ، ص 381.

[8] – فاروق خورشيد : السير الشعبية العربية ، ص 05..

وتُعنى هذه الأعمال بتتبع حياة البطل الذي تحمل عادة السيرة اسمه ، حيث تعرض بطولاته وشجاعته ومواقفه في قالب نثري يتخلله الشعر في الكثير من الأحيان ، ولا تكتفي السيرة الشعبية بعرض حياة البطل الرئيسي ، فهي تتعدى إلى ذكر منازل قومه ومناقبهم ونسبهم مع الإشارة إلى الدور الذي يمكن أن ينهض به بعض الأبطال الثانويين .

2 – نشأة السيرة العربية :

ترجع نشأة السيرة العربية إلى العصر الجاهلي ، حيث كانت هناك مرويات شفوية يتداولها العرب بعضهم عن بعض بالسماع شملت ذكر أقوام بائدة مثل التباعنة [1] ، والجراهيم[2] ، والعماليق [3] ، وأقوام طسم وجديس وجديس [4] ، وعاد [5] وثمود [6] ، كما شملت ذكر الكهان وأسجاعهم وأيام العرب ومفاخرهم التي تحكي عن عن بطولاتهم وكرمهم وإبائهم ، وكثير من الأخبار التي تصور حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والفكرية ... كما عرف العرب قصص الشعوب والأمم المجاورة أو التي احتكوا بها .

وقد أدى تراكم هذه المرويات وانتشارها إلى نسج الكثير من القصص والحكايات دارت حول سير الأبطال وحول الجن وأسمائها ومواطنها والغيلان والسعالي، وأخرى تدور حول أيام العرب ...

---

[1] – التباعنة : ملوك اليمن ، واحدهم تبع ، سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعا له على مثل سيرته ، وزادوا الهاء في التبابعة لإرادة النسب ، ويقال أن تُبتَ اشتق لهم هذا الاسم من اسم تبع ولكن فيه عُجمة ، وفي الحديث "لا تسبوا تبعا فإنه أول من كسا الكعبة" ، قيل هو ملك في الزمان الأول اسمه بعد أبو كره ، وقيل : كان ملك اليمن لا يسمى تبعا حتى يملك حضر موت وسبأ وحمير . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (تبع) ، ص 31.

[2] – الجراهيم : نسبة إلى قبيلة جرهم ، وهم حي من اليمن نزلوا مكة وتزوج فيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهما أصهاره ، ثم ألحدوا في الحرم فأبادهم الله تعالى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرشم) ، ص 67.

[3] – العماليق : العملاق : الطويل والجمع عماليق ، والعمالقة من عاد وهم بنو عملاق ، قال الأزهري : عملاق أبو العمالقة وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام على عهد موسى عليه السلام، وقال ابن الأثير : العمالقة الجبابرة الذين كانوا بالشام من بقية قوم عاد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنق) ، ص 371.

[4] – طسم وجديس : حي من العرب انقرضوا ، الجوهري : طسم قبيلة من عاد كانوا فانقرضوا. ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طعم) ، ص 363.

[5] – عاد : قبيلة ، وهم قوم هود عليه السلام . ابن منظور : مادة (عود) ، ص 322.

[6] – ثمود : قبيلة من العرب الأولى، ويقال أنهم من قبيلة عاد، وهم قوم صالح على نبيها عليه الصلاة والسلام بعثه الله إليهم . ابن منظور : مادة (ثمعد) ، ص 105.

وإذا تتبعنا المرحلة الجاهلية بالدراسة ، وجدنا أكثر من إشارة تدل على اشتغال هذه المرويات الحيز الأكبر من حياتهم ، وليس أدل على ذلك من وجود عدد كبير من محترفي رواية الأخبار مثل : النضر بن الحارث ، وهب بن منبه ، كعب الأحبار ...

وأصبحت بذلك رواية الأخبار ضرورة من ضرورات حياتهم « إذ كان في الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار وقصص التاريخ ، فيقصده من يقصده ، يستمليها ويكتبها .. » [1] .

وقد شكلت هذه المرويات بمرور الزمن تراثا ثقافيا يحمل عادات العرب وتقاليدهم ومعتقداتهم في الجاهلية ، وتميز وصولها إبان الفترة الإسلامية بإعادة تشكيلها تماشيا مع التغيرات الجديدة، التي أحدثها الإسلام في شبه الجزيرة العربية على جميع المستويات: السياسية والاجتماعية والفكرية والاجتماعية... ونتيجة لهذه التغيرات برزت فئة من الرواة من أمثال: تميم الداري (ت 40هـ/660م) ، وعبد الله بن عباس (ت 68هـ/687م) ... الخ ، فرضت ذوقا عاما على المجتمع وذلك بتبنيها رواية الأخبار الماضية للتأكيد على أهميتها في حياة العرب من جهة، وأن الإسلام جاء ليؤكد على عراقة العرب ومجدهم من جهة أخرى .

اتخذ الرواة في صدر الإسلام المساجد والمجالس العامة أماكن لرواية الأخبار والقصص الماضية، « وقد تواترت الأخبار عن الرسول الكريم (صلعم) ، أنه استمع إلى قصة الجساسة والدجال رواها له تميم الداري (ت40هـ-660م) ، ويُعد تميم هذا أول قاص في الإسلام (...) ولم يكن تميم القاص الوحيد ، بل إن عبد الله ابن عباس (ت 68هـ-87م) شارك في هذا الفن وخاض غماره ، إذ كان يجلس يوما ما يذكر منه إلا الفقه ، ويوما التأويل ، ويوما المغازي ، ويوما الشعر ، وأيام العرب » [2] .

وهكذا ، عندما وجدت تلك المرويات مكانا في المجتمع الجديد راح الرواة الذين ولعوا بها يمزجونها بأحداث عصرهم ، فكان أول ما سجلوا مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله وأفعاله وغزواته ، فظهرت سيرته عليه الصلاة والسلام التي اعتمدت على شيئين: « الأول ما كان دائرا بين العرب عن أخبار الجاهلية كأخبار جرهم ودفن زمزم [3] وأخبار قصي بن كلاب [1] وغلبته على أمر مكة وجمعه أمر قريش ومعونة قضاعة

---

[1] – طلال حرب : أولية النص ، ص 39 .

[2] – المرجع نفسه ، ص 39/38.

[3] – زمزم هي بئر إسماعيل بن إبراهيم التي سقاه الله منها حين ظمئ وهو صغير ، ومما يروى عن دفنها أن قبيلتي جرهم وقطراء اليمنيتين نزلتا بمكة ، فبغى بعضهم على بعض ، واقتلتتا قتالا شديدا ، ثم تصالحتا فصار الملك إلى عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الذي تذكر الروايات أنه قبل أن ينطلق ومن معه من جرهم إلى اليمن قام بدفن غزالي الكعبة وحجر الركن في زمزم ، وقد حزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا . ومما يروى كذلك أن عبد المطلب بن هاشم ، بينما كان نائما ، أُتي فأمر بحفر زمزم ، وكانت قد دفنتها قبيلة جرهم عندما وليت أمر مكة ، بعد ابن إسماعيل . راجع السيرة النبوية لابن هشام ، ص 111 – 116 .

له ، وقصة سد مأرب [2] ونحو ذلك ، والثاني أحاديث رواها الصحابة والتابعون من بعدهم عن حياة النبي (صلعم) من ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين وغزواته وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته ، وقد أضافوا أخبار الجاهلية والاسلام ، الأشعار التي رويت في هذه الموضوعات ... » [3] .

وتعتبر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أول سيرة كتبت في التاريخ العربي الإسلامي بعد وفاته ، وكان أول كتابها من جملة الصحابة والتابعين نذكر منهم : عروة بن الزبير بن العوام (ولد سنة 23 هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت 105هـ) وشرحبيل بن سعد (ت 123هـ) واشتهروا بكتابة مغازيه عليه الصلاة والسلام ، ثم تبعتهم طبقة أخرى من الصحابة نذكر منها : عاصم بن عمر بن قتادة (ت 120 أو 129هـ) ، وابن شهاب الأزهري (ت 124هـ) ... وكان ذلك في العصر الأموي مع استمرار الاهتمام برواية القصص وسير الأبطال والأخبار الماضية في المجالس والمساجد والقصور ، فمما يحكى عن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي أنه كان « ينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ عليه غلمان مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيمر بسمعه كل ليلة حمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح » [4] .

ويفسر اهتمام الخلفاء برواية القصص ما له من أهمية عند العرب ، كما يبين الدور الخطير الذي كان يؤديه في حياتهم ، إذ أصبح موجها عاما للحياة الثقافية عندهم .

وازدادت أهميته في العصر العباسي ، إذ ألفت فيه كتب مختلفة وحظيت السيرة النبوية بالانتشار والتدوين، فكان لها مكان متميز، وقد اهتم بالتأليف فيها رجال كان من أشهرهم : موسى بن عقبة (ت 141هـ) ومعمر بن راشد (ت 150 هـ او ت 153 هـ) ومحمد بن إسحاق (ت152هـ أ ت 153هـ) ، ومؤلفين آخرين كان منهم ابن سعد (ولد 168هـ) والواقدي (ولد 130 هـ وتوفي 209هـ) وابن هشام (ت 218هـ 230هـ)، الذي اكتملت على يديه الصورة النهائية للسيرة النبوية التي كانت الأصل الموجه لصياغة أنواع السيرة الموجودة في الأدب العربي .

---

[1] – قصي بن كلاب : وهو من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يذكر اسمه في سلسلة نسب الرسول عليه الصلاة والسلام ، راجع السيرة النبوية لابن هشام ، ج1+2 ، ص 123 / 125.

[2] – قصة سد مأرب: تروي المراجع العربية عن أخيار سد مأرب أنه يرتبط بشخص اسمه عمرو بن عامر، وكان هذا الأخير قد رأى جرذا يحفر في السد ، فعلم أنه لا بقاء له ، لذلك اعتزم الرحيل فغادر من دون أهله ، وتبعته الأزد ، وكانت وجهتهم الشمال وبعد رحيلهم انزل الله السير العرم فهدم السد . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج1 ج2 ، ص 13.

[3] – أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج2 ، ص 319.

[4] – المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج3 ، ص 222 ، نقله طلال حرب : أولية النص ، ص 39.

ومما يجدر ذكره في هذا السياق ، جَمْعُ بعض المؤلفين بين السيرة النبوية والتاريخ ، « فوصلوا سيرة الرسول بما بعدها من الحوادث والأخبار، في الأزمان التي تعاقبت، والسنين التي توالت ، فجاءت سيرة الرسول في كتبهم أمرا غير مقصود لذاته : بل حلقة من حلقات التاريخ العام الذي بدأه بعضهم من بدء الوجود ، كابن جرير الطبري ، وبدأه فريق آخر بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كالإمام حافظ أبي شجاع شيرويه صاحب كتاب رياض الأنس ، والمتوفى سنة 509 هـ » [1] .

وهذا المزج يفسر أمرين : أولهما أهمية فن الخبر في حياة المسلمين بصفة عامة وعلماء الدين بصفة خاصة ، وثانيهما : مكانة السيرة النبوية في التاريخ العربي الإسلامي .

3 – السيرة النبوية الأصل الموجه للأنواع السيرية :

لم تكن للعرب مادة قصصية عندما جاء الإسلام غير القصص الذي كان شائعا بينهم، والذي تشكل من أخبار الأمم الغابرة وسير الملوك والأبطال وأيام العرب .. وكان الغالب على هذه الأخبار الطابع الأسطوري المحمل بعادات العرب وتقاليدهم ومعتقداتهم وخرافاتهم في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أضاف لهم مادة قصصية قيمة من حياة الرسول صلعم جمعت فيما بعد لتشكل كتب السيرة النبوية .

وقد اتجه القصاصون إلى هذه المادة يتتبعونها أثرا أثرا ، وذلك لما وجدوا فيها من زخم وغنى فني يتلاءم مع حياتهم الجديدة ، وأكثر ما دعاهم إلى تتبع سيرته عليه الصلاة والسلام الاهتمام بأخلاقه وشمائله الحميدة التي أصبحت مثالا يحتذى به عند المسلمين في حياته وبعد وفاته ، كما كان جهاده وغزواته ومعاركه مثار اهتمامهم .

وترجع أسباب تتبع المسلمين بصورة عامة والقصاصين بصورة خاصة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى غياب التدوين، وهذا سبب ديني يرجع إلى أن القرن الأول مضى جميعه دون أن تدون الأحاديث النبوية تدوينا له صبغة رسمية ، ولعلهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فيجعلوا إلى جوار كتاب الله كتابا آخر (...) فقد روي عن الزهري أنه قال : أخبرني عروة ابن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فيه أصحاب الرسول ، فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهرا يستخير الله في ذلك شاكيا فيه ، ثم أصبح يوما عزم الله له فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وأني والله لا ألبس كتاب الله شيء » [2] .

---

[1] – ابن هشام : السيرة النبوية ، المجلد 1 و 2 ، تحقيق وشرح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط 2 ، 1375 هـ / 1955 م ، ص 10.

[2] – فاروق خورشيد : في الرواية العربية ، (عصر التجميع) ، ص 179 .

ولعل في تحرج الصحابة من كتابة الحديث النبوي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ما أتاح الفرصة للمشتغلين بالأخبار من رواية سيرته والاهتمام بحياته دون التقيد بالأحداث، وهذا سبب ثقافي يفسر « حاجة العرب إلى زاد من القصص ، فكان لا بد من البحث عن مصدر جديد للقصص والأسمار » [1] ، يغذي أحلامهم ويلبي رغباتهم ، ويكون في الوقت نفسه مخلصهم من براثن الجاهلية التي ألفوها .

ولقد وجد العرب في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم قيما ومثلا عليا كانوا جسدوها في أبطالهم الذين حمّلوهم سمة المدافعين عن رسالة معينة ، « وقد أتاحت لهم من هذا الجانب شخصية الرسول كل السمات التي يبحثون عنها في أبطالهم (...) فقد كانت معاركه كلها معارك انتصار لمبدأ ودفاع عن إيمان ، وحربا ضد شر وكفر (...) كانت معاركه إذن تصور صورة واقعية لأحلام أسطورية كثيرة راودت ذهن العربي وملأت خياله من قبل ... » [2] .

وتبقى حاجة الناس إلى معرفة حياة الرسول –صلعم– في غياب تدوين أفعاله وأقواله الدافع الرئيسي الذي جعلهم يلجئون إلى تدوين سيرته إضافة إلى الانقلاب الكبير الذي أحدثه الإسلام في حياتهم ، مما جعلهم أكثر حرصا على تدوين حياة مبلغ هذه الأمة .

لجملة هذه الأسباب شرع المهتمون بسيرته عليه الصلاة والسلام في تتبع حياته منذ ولادته حتى وفاته مستفيضين في الحديث عن أخلاقه وشمائله وغزواته، ولم يتركوا جانبا من جوانب حياته إلا وخاضوا فيه من جميع مناحيه ، « فمنهم من يفيض الحديث في أخلاقه ومنهم من يطيل القول في شمائله ، ومنهم من يتحدث عن أولاده ، ومنهم من يتخذ من أخلاقه مثلا كاملا للإنسان الكامل ، ومنهم من يجعل من السيرة النبوية محورا تدور حوله أحداث التاريخ الإسلامي وأعمال رجاله وصانعيه الأولين » [3] .

وكانت سيرة الرسول – صلعم – بعد وفاته روايات متفرقة لم يختص أحد بروايتها في زمنه ، والمرجح « أن الصحابة كانوا المصدر الأساسي لرواية وقائع حياته ، وعنهم أخذ الرواة الأول الذين بدأوا بالظهور في النصف الثاني من القرن الأول » [4] ، ويكون بذلك أول كُتَّاب السيرة من الصحابة والتابعين كما ذكرنا من قبل .

وكان تأثير كتب السيرة النبوية على الحديث قويا ، فلقد دخله الوضع والتحريف ، ولعل السبب راجع إلى أن مصادر هذه الموضوعات كانت من كتب كبار الأخباريين العرب كوهب بن منبه وعبيد بن شرية، « فقد

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 189.

[2] – المرجع نفسه ، ص 184 / 185.

[3] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، (دت) ، ص 34.

[4] – عبد الله إبراهيم: السردية العربية ، ص 127.

انتشرت هذه الكتب وكأنها تحوي علما حقيقيا لا جمعا أسطوريا ، لما سبق الرسول من أحداث ورواية قصصية لأحداث حياة الرسول .. » [1].

ونتيجة لهذا السبب ساد الاختلاف في كتابة السيرة النبوية بين المحدِّثين أمثال : عروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن عفان والأخباريين أمثال : ابن إسحاق والواقدي وابن سعد ، وكلاهما يمثل اتجاها في كتابة السيرة النبوية، له منهجه وطريقته، « فأما المحدِّثون فتمسكوا بالسند ورجاله ، وأولوا ذلك الأهمية الأولى ، وهم لا يقبلون حديثا إلا إذا استوثقوه من رجال سنده واحدا واحدا (...) وأما المؤرخون أو أهل التاريخ فكان لهم منهج آخر علمي سليم ، ولكنه لا يختلف عن منهج المحِّدثين فإن كبارهم من أمثال الواقدي وابن إسحاق وابن سعد يسلكون طريق السند الجماعي، أي أن الواحد منهم يبدأ بذكر جميع رواته وأسانيدهم، ثم يجمع ذلك كله ، ويستخرج منه رواية واحدة على النحو الذي نجده في كتبهم ، وقد أنكر أهل الحديث هذا المنهج واتهموا رجال التاريخ من أمثال ابن إسحاق والواقدي وابن سعد في عدالتهم » [2] .

وسايرت عملية تدوين الحديث ، تدوين مغازي الرسول الكريم ، وتناولت تقريبا كل السير هذا الموضوع، حتى أنها أخذت اسم المغازي في بداية ظهورها، إذ كانت سمة بارزة لها، « ويطلق مصطلح المغازي في الثقافة العربية الإسلامية على الأعمال الحربية التي قام بها الرسول (ص) وصحابته بصفة خاصة ، ويطلق أحيانا على جميع ما يتعلق بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم » [3] .

كانت السيرة النبوية تروى مشافهة في بداية ظهورها [4] ، حيث يعتمد راويها على ذاكرته ، إذ له حرية التصرف في تقديم الأحداث وتأخيرها ، وفي الزيادة والنقصان فيها ، واستمرت تروى على هذا الحال إلى أن عرفت طريقها إلى التدوين على يد محمد ابن إسحاق الذي عدّ أول من دونها في كتاب، وقد تأثرت المرويات التي ألف منها كتابه بالعصر الذي عاش فيه ، لذلك أضفى عليها مفاهيم عصر التدوين لا عصر الوقائع المدونة » [5] .

والذي تجدر الإشارة إلى ذكره أن ابن إسحاق جمع المادة التي ألف منها كتابه ممن سبقه ، وقام بتبويبها على طريقة كتاب عصر التدوين أمثال وهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمي ؛ وقد كانت لكتبهم ميزة البدء بنسب البطل وصحة اتصاله بقبيلته ، وتخللت أخبارهم الأشعار وهي سنة في التأليف القصصي العربي ، كما

---

[1] – فاروق خورشيد : في الرواية العربية (عصر التجميع) ، ص 190.

[2] – حسين مؤنس : دراسات في السيرة النبوية ، ديوان المطبوعات الجامعية (دط ، دت) ، ص 15/14.

[3] – عبد الحميد بورايو : المغازي لون من ألوان الثقافة العربية الإسلامية ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد 51 ، أبريل – يونيو ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، 1996 ، ص 36.

[4] – انظر عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 126.

[5] – المرجع نفسه ، ص 129.

أضفوا على الرسول بعض الأحداث الخارقة [1] ، وظلت سيرة النبي التي دونها ابن إسحاق على هذه الطريقة إلى أن ظهرت شخصية اكتملت على يدها الصورة النهائية للسيرة النبوية ، تلك هي شخصية عبد الملك بن هشام (ت 213 -628م) ، التي صاغ روايتها من سيرة ابن إسحاق التي انتهت إليه فاستبعد منها ما لم يرض اهتمامات الفقهاء « وأضاف إليها ما استحسنوه في مذاهبهم ، وأهمل التحقيق والمقارنة والنقد والمساق المنطقي للحوادث ، وأسقط من الأشعار ما لم يرض عنه وأضاف ما استحسنه » [2] .

ومن هنا أصبحت سيرة النبي لابن هشام المصدر الذي يستقي منه المؤرخون معلوماتهم والنموذج الأكمل لفن اكتمال السيرة النبوية برغم من أسبقية محمد بن إسحاق في هذا الميدان وفضله الكبير في روايتها ، « فلولا روايته ومشيخته لابن هشام ما انتهت إلينا السيرة النبوية بهذا الشكل الذي يعد أقدم مصدر معتمد في حياة الرسول » [3] .

كما عُدَّت السيرة النبوية الأصل الموجه لإعادة بعث وإحياء سير الغابرين وأخبار الأولين ، وإليها يرجع فضل اهتمام العرب بكتابة سير الأبطال ، ففي العهود التي تلت كتابتها « اختار الشعب شخصيات تاريخية من العصر الجاهلي خاصة مثل : الملك سيف بن ذي يزن (50 ق.هـ - 574م) ، والمهلهل بن ربيعة (نحو 100ق هـ - 525م) ، وعنترة بن شداد (22 ق هـ - نحو 600م) ، أو من العصر المملوكي كالظاهر بيبرس (676 هـ-1277م) ، وكتب لها سيرا كاملة ومطولة صور فيها ما عصف بهم من الأحداث وكيف تصدوا لها وانتصروا عليها » [4] .

ومن هذه الشخصيات التي تمثل عصور البطولة العربية تكون هيكل سيرنا الشعبية العربية محاكية في طريقة بنائها السيرة النبوية التي مهدت لها الطريق للظهور « الأمر الذي يؤكد أن بنية السيرة النبوية كانت الموجه الأول لصياغة البنى السردية للسيرة الشعبية فيما بعد » [5] .

ولا يخفى علينا الأثر الذي تركته كتب السيرة النبوية على كتب السيرة الشعبية فبعدما تنوقلت سيرته صلى الله عليه وسلم ولاكتها الألسن أصبح لها مكان متميز في مجتمع بدأت الأدران تنخل جسمه ، وفي الوقت الذي كانت لها هذه المكانة التي تعززت بتدوينها ، استغل القصاصون الوضع الجديد ورووا للخاصة وللعامة قصصا ، وكانت أكثرها انتشارا وذيوعا تلك المتعلقة بسير الأبطال ، وكانت حاجة العامة قد اشتدت إلى رواية هذا النوع

---

[1] - انظر فاروق خورشيد : الرواية العربية ، 188-192.

[2] - حسين مؤنس : دراسات في السيرة النبوية ، ص 14.

[3] - محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 32.

[4] - طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 7/6.

[5] - عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 130.

من القصص البطولي الشعبي « عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة ، وعنف المتغلبين من المغول فتقدم إليهم القصاص والمحدِّثون ، فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان ، ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاف ، حتى قيض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة، فكان من ذلك قصص عنترة وبن هلال ، وسيف بن ذي يزن ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وعلى الزئبق المصري ، وفيروز شاه » [1] .

واقتضت هذه الظروف مجتمعة تدوين السير الشعبية على طريقة تشبه تلك التي دونت بها كتب السيرة النبوية ، فكان اهتمام الرواة فيها بسبب البطل باديا وحرص ذكر اسمه في سلسلة النسب السامي، وذكر قبيلته ومفاخرها ، كما وضع الرواة شرطا قيدوا به أنفسهم قبل الشروع في رواية سير أولئك الشجعان تمثل في الصلاة على النبي المختار ، وهذا يوضح إلى جانب تخلل أخبارها بالأشعار الأثر القوي الذي تركته كتب السيرة النبوية على هذه المدونات .

ومما سبق يتضح أن النمط الذي دونت عليه كتب السيرة الشعبية لا يختلف كثيرا عن نمط تدوين كتب السيرة النبوية بشكل خاص والقصص العربي بشكل عام .

4 – أنواع السيرة العربية :

أ – التراجم :

عدّ الدارسون التراجم نوعا من الأنواع السيرية ، لأنها تتناول طبقات الأشخاص من حقول معينة ومختلفة ، فتصف معالم حياتهم وأعمالهم ومواقفهم ، لذا فهي تنطوي على حقائق ومعارف كثيرة تتصل بحياة هؤلاء الأعلام الذين يشكلون رصيدا لا بأس به من المعرفة الإنسانية « وتمثل التراجم جزءا كبيرا من الموروث الفكري والأدبي يصعب حصره امتد إلى جميع حقوق النشاط الثقافي وتنهض التراجم على قواعد محددة تهدف إلى التعريف الموجز بالمترجم له اسما وكنية ولقبا ، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبي تتناسب وأهمية الشخص » [2] .

أولى العرب فن التراجم اهتماما بالغا حتى ليمكن عدّهم في مقدمة الأمم في هذا الميدان وقد أخذت التراجم في الظهور منذ القرن الثاني للهجرة، وكان الباعث على ظهورها دينيا محضا، إذ كان غرضهم خدمة الحديث النبوية الشريف بتقصي الحقائق عن رواته وحفظته ، فأخذوا يتتبعون آثارهم للحكم عليهم « فترجموا

[1] – أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1419-1999 ، ص 289.

[2] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 130.

لهم تراجم وجيزة لم يكن القصد منها إلا بيان قيمة المحّدث ومكانته من الإسناد ، وجرّهم ذلك إلى وضع كتب في نقد الرجال المحدِّثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرواية عن الرسول صلعم » [1] .

لقد أدى تدوين الحديث إذن في هذا العصر وبيان قيمة المحدثين ومكانتهم في تراجم وجيزة إلى خدمة فن التراجم ، إذ نبّهت الكتب الأولى في هذا الفن كتاريخ البخاري والطبقات لابن سعد الأذهان إلى وضع تراجم أخرى تهتم بلون واحد من العلم ، « فلم يلبث العرب أن ألفوا في التراجم وفي الطبقات ، فكان إلى جانب تراجم الصحابة والتابعين وطبقات الفقهاء والمحدثين والحفاظ والشعراء والمفسرين تراجم الأدباء والشعراء ، وتراجم للنحاة واللغويين وتراجم للأطباء والحكماء ولسائر العلماء » [2] .

ثم أخذت التراجم تتنوع وتتعدد مواضيعها ، إذ اتسع مجالها – كما ذكرنا – فشملت الشعر والفقه والحديث والطب ... فاختلفت بذلك في حجمها وتراوحت ما بين الإيجاز والإسهاب، « ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التي تتصل بالمترجم له تعين كثيرا على الإطالة في الترجمة له وعلى فسح مجال القول فيه ، فهنا يجد كاتب الترجمة فيضا واسعا من المادة التي تطول معها التراجم » [3] .

والجدير بالذكر أن كتب التراجم كانت ترجمة لاهتمامات أصحابها ، لذلك تنوعت واختلفت مواضيعها ، فكان منها المخصص لموضوع واحد مثل كتاب " طبقات فحول الشعراء " وكتاب " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، فموضوع كتابهما الشعر، أو الذي يهتم بأكثر من موضوع مثل المعاجم كمعجم الأعلام لخير الدين الزركلي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، وكتاب "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" للثعالبي ... الخ ، فهي معاجم وكتب تحوي أخبارا عن محدثين وفقهاء وأطباء ومؤرخين... وقد استمرت كتب التراجم على هذه الشاكلة تحوي جمعا لطائفة من الأخبار .

ومما لوحظ على تراجم هؤلاء الرجال أنها أخذت طريقة المحدثين ، لأنهم كانوا الأسبق في هذا الميدان ، فاصطبغت المؤلفات الأدبية على وجه الخصوص بصبغة أعمال المحدثين خاصة فيما تعلق بطريقة الإسناد ، « فهم لا يذكرون الخبر مجردا ، وإنما سيندونه إلى رواته قائلين : حدثنا فلان عن فلان كما يصنع أصحاب الحديث فهم متأثرون بهم في الإسناد إلى حد كبير » [4] . ويمكن أن نعد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مثالا عن تأثره بطريقة الإسناد فمما يرويه عن أخبار دُعبل بن علي ما يلي : قال : « أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار

---

[1] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 18.

[2] – عمر الدقاق : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم ، منشورات دار حلب ،سوريا ط 5 ، 1977 ، ص 229.

[3] – المرجع السابق ، ص 72 .

[4] –محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 20.

ومحمد بن أحمد الحكمي قالا : حدثنا يعقوب بن اسرائيل قال : حدثني أنس عبد الله النبهاني قال : حدثني علي بن المنذر قال : حدثني عبد الله بن سعيد الأشعري قال : حدثني دعبل بن علي قال : لما هربت من الخليفة بت ليلة بنسابور وحدي وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن الظاهر في تلك الليلة فإني لفي ذلك إذ سمعت والباب مردود عليّ : السلام عليكم ورحمة الله ، يرحمك الله ، فاقشعر بدني من ذلك ، ونالني أمر عظيم ، فقال لي : لا تفزع عافاك الله فإني رجل اخواتك من الجن، ثم من ساكني اليمن ، طرأ إلينا طارئ من أهل العراق ، فأنشدتنا قصيدتك :

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاوَةٍ وَمَنْزِلِ وَحَيٍّ مُقْفِرِ العَرَصَاتِ

فأحببت أن أسمعها منك ، قال : فأنشدته أياها ، فبكى حتى خرّ ، ثم قال : رحمك الله ، ألا أحدثك حديثا يزيد في نيتك ، ويعينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت : بلى ، قال مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة ، فسمعته يقول : حدثني أبي عن جده أن رسول صلعم : قال أن عليا وشيعته هم الفائزون، ثم ودعني لينصرف فقلت له : يرحمك الله إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل ، قال : أنا ضبيان بن عامر » [1] .

وكما يبدو من هذا المثال ربما فإن أبا الفرج الأصفهاني متأثر بطريقة الإسناد التي وجدت عند المحدثين، فقبل أن يسرد قصة دعبل بن علي مع الجن أرجع الحادثة إلى رواتها الذين كانوا مصدر القصة التي انتهت إليه .

ولا يخفى على متتبع هذا الفن العمل الجليل والجهد الكبير الذي قام به هؤلاء المترجمون بقصد نقل ما أثر عن المترجم لهم ، فقد حرصوا على ذكر الخصال ، وقاموا بالتمحيص والمقارنات ... « غير أن الحقائق في هذه الكتب كثيرا ما تختفي وراء ظاهرة الإسراف في إطراء المترجم لهم والمبالغة في الثناء عليهم ، والغلو في تقديرهم ... » [2]، فهذا ابن قتيبة صاحب "الشعر والشعراء"، يطري حديثه عن حاتم الطائي، فيقول عنه :« ..وكان جوادا ، شاعرا جيد الشعر ، وكان حيث ما نزل عُرف منزله، وكان ظفرا، إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح سبق، وإذا أسر أطلق ، قال أبو عبيدة : أجود العرب ثلاثة : كعب بن مامة وحاتم طيْ وهرم بن سنان صاحب زهير » [3] .

---

[1] – أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق وإشراف نخبة من الأساتذة ، مج 20 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ط6 ، 1404هـ / 1983 ، ص 93 – 94 .

[2] – عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص 230.

[3] – ابن قتيبة : الشعر والقراء ، ج1 ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1916 ، 1966 ، ص 241 .

وكما هو جليٌ ، إطراء بن قتيبة على حاتم الطائي في حديثه ، فقد ألحق به من الخلال الحميدة والأوصاف الحسنة ، حتى أن المرء ليعجب منه .

– أنواع كتب التراجم :

1 – التراجم العامة الجامعة :

وهي تراجم لرجال بارزين يجتمعون في صفة الجدارة ويختلفون في توجهاتهم المعرفية وفي عصورهم وأمصارهم .

2 – التراجم حسب العصور :

يتناول هذا النوع الترجمة للرجال حسب العصور التي ينتمون إليها.

3 – التراجم سنة سنة :

وهي التي تقوم على ترتيب الأعلام المترجم لهم على حسب السنين ، كأن يذكر في كل سنة أهم من مات فيها ، ويعتبر هذا النوع من هذه الناحية سجلا تاريخيا لوفيات الرجال حسب السنين .

4 – التراجم في كتب التاريخ العام :

وهو أن يعمد المؤرخ إلى الترجمة لبعض الرجال بعد ذكر الحوادث السياسية العامة في كل سنة .

5 – التراجم في كتب الخطط والآثار :

يهتم هذا النوع بذكر البلدان ومواقعها ومعالمها ، كما يهتم بالترجمة للرجال الذين شيدوا عمرانها .

6 – كتب الطبقات في التراجم :

يهتم هذا النوع من التراجم بالرجال ذوي الاهتمام الواحد ، فيجمعون في طبقات على اعتبار تخصصهم ، ويندرج تحت هذا النوع : طبقات الصحابة والفقهاء والمفسرين والمحدِّثين والشعراء والصوفية والقضاة والفلاسفة والأطباء والحكماء ...

ومن هذا التنوع تأخذ التراجم طريقها إما إلى التاريخ أو إلى الأدب ، ويصطلح على النوع الأول بالتراجم الخارجية ، وعلى النوع الثاني بالتراجم الداخلية ، ويقتصر المترجم في النوع الأول على « وصف المترجم له بذكر الحقائق الخارجية والوقائع التي حدثت للمترجم من غير أن يشوبها المترجم بشيء من أفكاره ومشاعره ، والترجمة من هذا النوع ليست إلا ثبتا للحقائق ، وهي بالمؤرخ أشبه » [1] .

أما في النوع الثاني من التراجم فيذكر المترجم عن المترجم له « ما وصل إليه من حقائق ويحللها ثم يتبعها برأيه في المترجم إما دفاعا عنه أو هجوما عليه ، إما نقدا وذما وإما مدحا وتقريضا، إما استحسانا للمأثور عن أقواله وآرائه أو استهجانا ، وهذا النوع بالأدب أليق » [2] .

وعرفت التراجم العربية بتوالي العصور تطورا كبيرا ، وسارت في طريقتها على نهج المحدثين منذ القرن الثاني الهجري خاصة فيما يتعلق بطريقة الإسناد وجمع الأخبار حول الشخصية المترجم لها ، واستمرت على هذا النحو إلى غاية العصر الحديث حيث أخذت طريق آخر اختلف عن نهجها القديم ، فلم يعد المترجمون يهتمون بجمع المعلومات بقدر ما أصبحوا مهتمين بشكلها ورونقها الأدبي ، « ولقد ظهر هذا التحول في كتابة التراجم في الأدب العربي الحديث في الثلث الثاني من هذا القرن ، فظهرت العبقريات وطائفة أخرى من التراجم (...) وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء تكتب بأقلام جديدة تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع » [3] .

وبناء على هذا التوجه الجديد في كتابة تراجم الرجال عُدَّت الترجمة فنا أدبيا له مميزاته وخصوصيته التي تفصله عن باقي الأنواع الأدبية، والذي يهمنا أنها تلتقي مع فن السيرة في الخصائص التالية :

1 – الاعتناء بظاهرة النسب وخاصة نسب الشخصية الرئيسية ، ففي الأغاني يهتم أبو الفرج بنسب الشخصيات الرئيسية ، ومن تلك التي أسهب في الحديث عنها شخصية دعبل بن علي الذي يقول عنه « هو دعبل بن علي بن رزين بني سليمان بن تميم بن نهشل (وقيل نهنس) بن خداش بن خالد بن دعبل بن أنس بن خزيمة بن سلامان بن أسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر مزيقيا » [4] .

2 – الاهتمام بتصوير حياة الأشخاص من خلال الأخبار المروية ،كما في شخصية دعبل بن علي .

---

[1] – أحمد أمين : فيض الخاطر ، ج2 ، سلسلة الأنيس ، موفم للنشر ، الجزائر ، (د.ط) ، 1989 ، ص 271.

[2] – المرجع نفسه ، ص 272/271.

[3] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 14.

[4] – أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، المجلد العشرون ، ص 68.

3 – الاعتناء بحياة الشخصية الرئيسية والإحاطة بمولدها ونشأتها وأهم الأحداث في حياتها، مع عدم إهمال الشخصيات الثانوية، ففي الأغاني دائما يتعرض أبو الفرج الأصفهاني لنسب مسكين الدارمي ومعارضته لشعر الفرزدق وإعراض هذا الأخير عنه ، وإعجاب معاوية بشخصيته واستحسان بشر بن مروان لشعر مسكين الدرامي ، وحادثة خطبته للفتاة التي كرهته لسواد لونه وقلة ماله وغيرها من الأحداث التي وقعت له في حياته [1] .

4 – الاعتماد على التاريخ في استقاء المادة ، وهنا تختلف الترجمة عن السيرة في كون هذه الأخيرة تعمل على تحوير الأحداث التاريخية لخدمة أغراضها ، كما في السيرة الشعبية .

ب – السيرة الذاتية :

تعد السيرة الذاتية لونا من الألوان الأدبية العريقة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية ، إذ يطالعنا كم هائل من هذا النوع ، وإذا كان ما مضى من الأشكال السيرية الأخرى يمثل سيرة الآخرين ، فإن هذا الشكل يمثل السيرة التي يكتبها الكاتب بنفسه عن تجاربه الشخصية فهي « حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة » [2]، مسجلا أعماله ومبينا تكوينه الفكري ورصيده الثقافي، وهذا ما يجعل من هذا الشكل حكرا على الفلاسفة والعلماء والأدباء والساسة والعسكريين ...

يعتبر هذا الشكل السيري دخيلا على الثقافة العربية ، إذ يعد فنا مستحدثا قلّد فيه العرب « غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرءوا آثارها ، وخاصة اليونان » [3]، فقد قرأ العرب ترجمة "جالينوس" في العصر العباسي وترجمة كسرى وتراجم ذاتية لشخصيات أخرى من أمم مختلفة ، تأثروا بها ، فترجموا لأنفسهم ، فجاء إنتاجهم غزيرا .

وهناك من يرجئ تأخر ظهور فن الترجمة الذاتية عند العرب حتى العصر العباسي إلى « أن العرب كانوا أحرص الناس علىحيواتهم الخاصة حين انصرفوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم ، ولعل أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة ، قد عدّلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك

---

[1] – المرجع السابق ، من ص 179 إلى 268 .

[2] – محمد الباردي : السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، المجلد 16 ، الجزء 1 ، العدد الثالث ، مجلة النقد الأدبي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1997 ، ص 271.

[3] – شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 2 (د.ت) ، ص 05.

عنهم ، ولعل من خلق العربي وسمات نفسه أن لا يتحدث عن نفسه يقوله : أنا أو عن عمله بقوله : عملت »
[1] .

وربما كان سبب تأخر الترجمة الذاتية راجع إلى ولوع العرب وافتتانهم بفن الخبر ، وربما أدى بهم هذا الافتتان إلى الانصراف عنها ، وبالتالي تأخر ظهورها حتى العصر العباسي الذي ظهرت فيه أولى الترجمات الذاتية على يد حنين بن إسحاق (ت 260 هـ -873م) ، عندما ترجم لنفسه متأثرا بما ترجمه عن "جالينوس" ، وعقبت ترجمة حنين ابن إسحاق ترجمات شخصية وجدت على شكل رسائل ومن أشهرها رسائل: محمد بن زكريا الرازي (ت 313هـ/925م) ، وابن الهيثم (ولد 354هـ/965م) ، وابن سينا (ولد 370هـ / 980م) ... وبدأ بعد ذلك التزايد على هذا الشكل اعتبارا من القرن الخامس الهجري ، فظهرت ترجمات ذاتية في ثنايا الكتب مثل الترجمة الذاتية لابن حزم في كتابه طوق الحمامة في الألفة والآلاف (ت 454هـ-1062م) .. ثم كانت أول ترجمة ذاتية كاملة لعلي بن زيد البيهقي (ت565هـ/1169م) في كتابه "مشارب التجارب" وهو مفقود [2] ، ثم توالت ترجمات شخصية لعماد الدين الأصبهاني وابن الجوزي (ت 597هـ-1200م)، وكان ذلك في القرن السادس الهجري .

وكثرت الترجمات العلمية والأدبية في القرن السابع الهجري وظهر أعلام ترجموا لأنفسهم مثل : محمد بن محمد الجزري (ت 833هـ-1492م) ، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ-1496م) ، وللسيوطي (ت 911هـ-1505م) ، .. وكانت التراجم تأتي على شكل كتيبات ورسائل مستقلة .

واتسع مجال الترجمة بعد هذا القرن ، وتنوعت واتسعت ميادينها فكان للمتصوفة كما كان للأدباء ورجال السياسة والمؤرخين والفلاسفة ترجماتهم الشخصية .

وفي العصر الحديث استفاد العرب من فن الترجمة عند الغرب ، فقد كان متطورا عندهم ، وكتبوا سيرهم الشخصية على ضوء ما كتبه أدباء الغرب ، فجاءت كتاباتهم إما على طريقة الاعترافات ، محاكية أعمال جان جاك روسو J. J. Rousseau وغوته Guth .. وإما على طريقة التستر تحت فن القصة محاكاة لأعمال جولدسميت "Goldsmith" وديكنز « Dickens» [3] .

ومن أهم من ترجموا لأنفسهم في العصر الحديث عند العرب : علي مبارك في كتابه "الخطط التوفيقية" ، سنة 1989 ، ومحمد كرد علي في "خطط الشام" وطه حسين في "الأيام"، وأحمد أمين في "حياتي" ، وعباس

---

[1] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 24.

[2] – انظر شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ص 43.

[3] – انظر المرجع السابق ، ص . ن .

محمود العقاد في كتابه "أنا" ، وقد جاءت كتابات هؤلاء الأعلام على طريقة الاعترافات ، وصفوا فيها حياتهم دون أي تحرج ، ويمثل كتاب إبراهيم الكتاب للمازني طريقة التستر تحت فن القصة .

ج – السير الموضوعية :

هي السير التي يكون فيها المترجم والمترجم له معروفين ، وتختلف عن الترجمة العادية في كونها تسهب في الحديث عن الشخصية المتحدث عنها ، فتفصل في حياتها وأعمالها وآثارها وتهتم بمكانتها تاريخيا وفكريا ، لأن الهدف في هذه التراجم هو تقديم الشخصية بوصفها نموذجا للاحتذاء شأن شخصية عمر بن الخطاب ، التي تناولها "ابن الجوزي" في كتابه الموسوم بمناقب أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ، وشخصية ابن طولون التي أسهب البلوي في الحديث عنها في كتابه الذي عنوانه "سيرة أحمد بن طولون" .. وكثيرا من الشخصيات ذات المكانة المرموقة .

وكان الداعي إلى التأليف في هذا الشكل السيري هو السيرة الشريفة للشخصيات المترجم لها ، فقد أدى اهتمام الناس بها إلى استفاضة المترجمين في الحديث عن أوصافها وشمائلها وخلالها ، فابن الجوزي يعزو سبب تناوله لشخصية عمر بن الخطاب إلى اعتبارين : أولهما أن في "أخبار الأخيار دواء للقلوب ، وجلاء للألباب" [1] ، وثانيهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « جمع من العلم والعمل ما أدهش العلماء والعاملين ، وقام من الحد في السياسية والعدل ما أعجز الولاة السلاطين ، وأضاف إلى ذلك من الزهد والصبر ما يلح (يكل ويتعب) دونه أهل العزم من الملوك والزاهدين فأخباره تقوم إلى الأمر تارة باحتذاء أثره وتارة بتنكيس رؤوس العجزة عنه وتحت أهل الجد في طلب الآخر ، على التشمير في قطع مضمار السباق ... » [2] .

ويستمد المترجم الأوصاف التي يضفيها على المترجم له من المرويات الإخبارية التي تراكمت حول تلك الشخصية ، فيذكر ابن الجوزي في باب حديثه عن مولد عمر بن الخطاب ما تجمع عنده من أخبار حول مولده وكذلك في باقي الأبواب ، فهو يستند إلى جملة ما تواتر إليه من الأخبار التي تجمعت حول شخصية عمر رضي الله عنه ، ويؤدي تراكم المرويات حول شخصية معينة في كثير من الأحيان إلى « إضفاء سمات شبه خارقة على الشخصيات موضوع السير » [3] ، فعن نبوءة التوراة بشأن ظهور عمر بن الخطاب يحدثنا ابن الجوزي قائلا :

---

[1] – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، دراسة تحقيق وتعليق : السيد الجميلي ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 2003 ، ص 13.

[2] – المرجع نفسه ، ص 14/13.

[3] – عبد الله ابراهيم : السردية العربية ، ص 132.

« عن عبد الله قال : ركب عمر رضوان الله عليه فرسا ، فركضه فانكشف ثوبه عن فخذه فرأى أهل نجران على فخذه شامة سوداء، فقالوا: هذا الذي نجده في كتابنا يخرجنا من أرضنا » [1] .

إن إشارة التوراة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضفي على شخصيته سمات العظمة والرفعة ، فهي تجعل منه شخصا غير عادي ، لأن النبوءة في الكتب السماوية عادة ما تختص بالأنبياء والرسل .

وتقرب هذه السمات الشبه الخارقة التي يضفيها المترجم عن المترجم له – من خلال ما تجمع عنده من أخبار – هذا الشكل السيري من شكل السيرة الشعبية التي يغلب على أحداثها الطابع الأسطوري ، كما يلتقيان من جانب الاستفاضة في الحديث عن الشخصية موضوع السيرة « ... ولذلك فالسير الموضوعية مرحلة من التعبير الموضوعي عن الآخرين ، تقع بين التراجم والسير الشعبية » [2] .

[1] – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص 19.

[2] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 132.